الحديث الثالث والعشرون

مثل البخيل والمنفق

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول:

«مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جُبَّتان من حديدٍ، من ثُدِيِّهِمَا إلى تراقِيْهِمَا: فأمَّا المُنفق؛ فلا ينفق إلا سَبَغَتْ ـ أو وَفَرَتْ ـ على جلده، حتَّى تُخْفِيَ بنانَه، وتَعْفُو أثره.

وأمَّا البخيل فلا يريد أن يُنفِق شيئاً إلاَّ لَزِقَتْ كلُّ حَلْقَةٍ مكانَها، فهو يُوَسِّعُها ولا تتَّسِع».

قال أبو هريرة: فأنا رأيتُ رسولُ الله ﷺ يقول بأصْبَعِهِ هكذا في جيبه، فلو رأيته يُوَسِّعُها ولا تتوسَّع. رواه البُخاريُّ، ومسلمٌ، وأحمد، والنَّسائيُّ[1].

والجُبَّة: ثوبٌ مخصوصٌ، وما زالت هذه الكلمة مستعملةً في بعض البلاد العربيَّة، وعلماء فقه اللغة يذكرون: أنَّ هذه المفردة دخلت في اللُّغة الفرنسيَّة من العربيَّة.

ولا مانع من إطلاق هذه الكلمة على الدِّرع. ووردت هذه الكلمة في بعض روايات الحديث في الصَّحيحين بلفظ «جُنَّتَانِ» بالنُّون بمعنى الدِّرع.

والثَّدْيُ جاء في «المختار»: [الثَّديُ يُذَكَّر، ويُؤَنَّث، وهو للرَّجل، والمرأة أيضاً. والجمع أَثْدٍ، وثُدِيٌّ، بضمِّ الثَّاء، وكسرها].

---

(١) البخاري برقم ١٤٤٣ و٥٧٩٧، ومسلمٌ ١٠٢١، والنَّسائيُّ ٥/ ٧٠، وأحمد ٢/ ٢٥٦ و٣٨٩ و٥٢٣.

والتَّراقي : جمع تَرْقُوَة ، وهي العظم المُشرف في أعلىٰ الصَّدر إلى طرف ثُغْرَة النَّحر .

جاء في «المختار» [والتَّرْقوةُ : العظم الَّذي بين ثُغرة النَّحر ، والعاتق ، ولا تُضمُّ التَّاء] .

هذا الحديث ورد بروايات متعدِّدة في الصَّحيحين ، وبعضها يُكمل بعضاً ، ويَحْسُنُ أن أشير إلى بعضها ممَّا له علاقةٌ بالمعنى :

ففي رواية لهما : «عليهما جبَّتان من حديدٍ قد اضْطَرَّت أيدِيَهُما إلى ثُدِيِّهما» .

وفي روايةٍ لهما : « . . . من حديد من لدن ثُدِيِّهما إلى تَراقِيهِمَا» وكذلك رواية النَّسائيِّ : «إنَّ مثل المنفق المتصدِّق ، والبخيل كمثل رجلين عليهما جُبَّتان ـ أو جنَّتان ـ من حديدٍ من لدن ثُدِيِّهما إلى تراقِيهما» .

فقد دلَّت الرِّواية الأولىٰ : أنَّ الجبَّتين ضيِّقتان ، قد اضطرَّت أيدِيَهما إلى ثُديِّهما ، وتراقِيهما ، حتَّى كانت يدا كلٍّ منهما مغلولتين إلى عنقه ، ودلَّت الرِّواية الثَّانية والرِّواية الَّتي صدَّرنا بها حديثنا على أنَّ الجُبَّتين قصيرتان ، فهما من لدن ثُدِيِّهما إلى تراقِيهما .

هذا الحديث يقوم على الصُّورة البيانيَّة؛ الَّتي تأخذ بمجامع القلوب ، وتسحر الألباب ، والَّتي تؤدِّي المعنى المطلوب بدقائقه ، وتفصيلاته بأجلىٰ بيانٍ، وأعمق تأثيرٍ، وأوجز كلامٍ. تعرض هذه الصُّورة أمام أبصارنا، وخيالنا ، وعقولنا حقائق قائمةً في دنيانا ، قلَّ أن ننتبه عليها ، وبعرضها هذا يبرز الحلُّ النَّاجع لما يمكن أن تنطوي عليه تلك الحقائق مِنْ متاعبَ ، ومشكلات .

إنَّ هذا الحديث الجميل ، وأمثاله لتقيمُ الدَّليل القاطع ، والبُرهان السَّاطع على صحَّة قوله ﷺ : «أوتيتُ جوامع الكَلِم»[1] .

---

(١) انظر البخاري ٤/ ٤٣ برقم ٢٩٧٧ ، ومسلمٌ ٢/ ٦٤ برقم ٥٢٣ ، وسنن الدَّارقطني ٤/ ١٤٤ ، والدُّرر برقم ١٦١ ، ومجموع الفتاوىٰ ١٨/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩ .

إنك كلَّما نظرت في هذه الصُّورة المعبِّرة وقفت على معنىً ، وعلى جانبٍ من جوانب التَّصوير ، يختلف عن الجوانب الأخرى.

إنَّنا لا نجد في هذا الحديث كلاماً غير هذا التَّمثيل الَّذي ضربه رسولُ الله ﷺ للمتصدِّق ، والبخيل.

ولنعرض جانباً جانباً من جوانب هذه الصُّورة الرَّائعة:

هناك رجلان: أحدُهما بخيلٌ ، لا ينفق ، ولا يتصدَّق على الآخرين ، بل ولا يسخو على نفسه ، وأسرته بالطَّيبات من الطَّعام ، ولا بالفاخر من اللِّباس ، ولا بالمُريح من المسكن ، والمركب مع غناه الواسع ، وثرائه الكبير.

وثانيهما: كريمٌ ينفق ، ويتصدَّق على الفقراء ، والبائسين ، ولا يحرم نفسه ، وأسرته ممَّا أحلَّ الله له من الطَّيبات الَّتي أخرجها لعباده من طعامٍ ، وملبسٍ ، ومسكنٍ ، ولا يسرف ، ولا يبذِّر.

تعرض الصورة هذين النَّموذجين اللَّذَيْن يكثُر وجودُهما في الحياة ، كما يأتي: رجلان عاريان ، ليس عليهما من ثيابٍ إلا قميصاً من حديدٍ قصيراً ، من الكتف إلى الثَّدْي ، لا يجاوزه ، وهو بعد ذلك ضيِّق أشدَّ الضِّيق ، قد اضطرَّ يدي كلٍّ منهما إلى أن تكون على كتفه من الأعلىٰ وعلى الثَّدي من الأسفل ، لا يتحرَّكان إلا بصعوبةٍ.

هذا الجانب من هذا التشبيه يُشير إلى أنَّ هناك ضروراتٍ لا بُدَّ من قضائها ، يستوي فيها الغنيُّ ، والفقير ، والجواد ، والبخيل. إنَّ كلاًّ منهما لا بُدَّ له من أن يأكل ، ويشرب حتَّى يبقىٰ حيَّاً ، ولا بُدَّ له من مأوىٰ يقيه حرَّ الصَّيف ، وبرد الشِّتاء ، يظلُّه من الشَّمس ، ويحميه من لسع الزَّمهرير ، ولا بُدَّ له من لباس يستر سوءَته ، ويدفع عنه تأثير العوامل الخارجيَّة.

هذه الضَّرورات ينفق النَّاس من أموالهم مقداراً مُعيَّناً لسدِّها ، وقضائها ، فأشدُّ النَّاس بخلاً ينفقُ على هذه الضَّرورات ما يقيم أَوَدَه ، ثمَّ لا يجود بعد ذلك بشيءٍ مهما قلَّ.

ولكنَّ هذا المقدار لا يحقِّق سعادةً لصاحبه ، ولا متعةً ، ولا يتيح له أن

يحقِّق ذاته ، وأن يقيم العلاقات الاجتماعيَّة مع الآخرين.

إنَّ لابس الجُبَّة يُعدُّ لابساً ، ولكنَّ عورته باديةٌ ، ومعظم جسمه مكشوفٌ ، والجُبَّة صلبةٌ قاسيةٌ ؛ لأنَّها من الحديد ، وهي من الضِّيق بحيث تحبسُ يديه وتضمُّهما إلى التَّراقي.

ولكن شأن هذه الجبَّة عجيبٌ عجيبٌ. . . إنَّها تطول ، وتمتدُّ ، وتنبسط حلقاتُها بالبذل ، والإنفاق. وهذا جانبٌ آخر من جوانب هذه الصُّورة الرَّائعة: هنا يكون موقفان وحالان مختلفان لهذين الرَّجلين:

أمَّا المُتصدِّق الكريم ؛ فإنَّه ينفق من ماله ، ويَبْذُلُ ممَّا آتاه الله ، فسرعان ما تنبسط حلقاتُ الجبَّة ، وتطول ، وتطول ، وإذا هي سابغةٌ تعفو أثَرَهُ إذا مشى ، وتُغطِّي أكمامُها بَنانَهُ ، فيقوى على استخدام يديه ، ويجرؤ على مقابلة النَّاس ، والتَّعامل معهم ؛ لأنَّه مستور العورة. فيغدو ، ويروح آمناً سعيداً ، مسروراً بخلاصه من الضِّيق ، والعنت ، والفضيحة.

وأمَّا البخيل ؛ فيبقىٰ في إنفاقه في حدود الضَّرورة لا يجاوزها إلى غيرها ، فلا يطعم أحداً ، ولا يجود بشيءٍ ، وقد يعظم هذا البُخل ؛ حتَّى يكون على نفسه ، فيحرمها من كلِّ شيءٍ إلا ممَّا لا بدَّ له منه ، وهو في هذه الحال محكومٌ بنفسه الخسيسة ، الشَّحيحة ، الدَّنيئة.

وقد يريد أن يَبْذُلَ ، ويتصدَّق. . . ويحاول ذلك. . ولكنَّه يخفق في محاولته ، وتنهزم إرادته أمام طبيعة الشُّح الَّتي أحضرتها الأنفس ، فتبقى حلقات الجُبَّة على ما هي عليه ، بل تزداد ضغطاً ، وتقلُّصاً. . وضيقاً. . . ويبقىٰ الرَّجل مكشوف العورة أمام النَّاس ، والنَّاس يُطلقون ألسنتهم فيه ، يشتمونه ، ويعيبونه. . . وهكذا يظلُّ في عزلةٍ ، وضيقٍ ، وغمٍّ. . وقد يحاول مرَّةً أخرىٰ أن يتصدَّق ، ولكنَّه يبوء بالهزيمة.

إنَّ الإنفاق ، والجود يستر العيوب ، والمساوئ كما سترت تلك الجبَّة جسم هذا الرَّجل ، ولله درُّ صالح بن عبد القدوس:

ويُظْهِرُ عَيْبَ المَرْءِ فِي النَّاس بُخْلُهُ ... ويَسْتُرُه عَنْهُمْ جَمِيعَاً سَخَاؤُهُ

تَغَطَّ بِأَثْوَابِ السَّخَاءِ فَإِنَّنِي أَرَىٰ كُلَّ عَيْبٍ والسَّخَاءُ غِطَاؤُهُ[1]

وقال آخر:

إِذَا كُنْتَ جَمَّاعَاً لِمَالِكَ مُمْسِكَاً فَأَنْتَ عَلَيْهِ خَازِنٌ وَأَمِيْنُ
تُؤَدِّيْهِ مَذْمُومَاً إِلَىٰ غَيْرِ حَامِدٍ فَيَأْكُلُهُ عَفْوَاً وَأَنْتَ دَفِيْنُ[2]

إنَّ هذا التَّشبيه الرَّائع يمكن أن يفهم على جوانب متعدِّدةٍ كلُّها قائمةٌ في دنيا الواقع ، وقد قرَّر علماء البلاغة : أنَّ النُّكَتَ البلاغيَّة قد تتعدَّد في الصُّورة ، والعبارة الواحدة ، وتختلف حسب التَّوجيه. وأحسب: أنَّ هذا يدخل في غنى الأسلوب النَّبويِّ بالمعاني ، فالصُّورة الواحدة تُفهم على وجوهٍ عدَّةٍ كلُّها تصدق على الواقع. وإذا كان علماء البلاغة ـ في بعض الأمور كالاستعارة التَّبعيَّة ـ يقولون: إنَّ كلَّ استعارةٍ تبعيَّة يمكن أن تكون قرينتُها استعارةً مَكْنِيَةً ، وإذا أُجريت واحدةٌ امتنع إجراء الأخرىٰ ، فإنَّنا بالنِّسبة إلى الصُّورة في دراستنا الأدبيَّة نقبل كلَّ التَّوجيهات إن كانت ضمن دائرة الشَّرع ، وممَّا تقبلُها أحكامه ، ومقاصده.

وهذا جانبٌ آخر تدلُّ عليه هذه الصُّورة الرَّائعة ، وهو كون الجبَّة الحديديَّة جبَّةً ضيِّقةً . . . وقد قلنا: إنَّ في ذلك إشارةً إلى الضَّرورات المادِّيَّة الَّتي يستوي في الاضطرار إليها الأحياءُ من البشر كراماً ، وبخلاء ، مسلمين ، وكافرين. ونقول: إنَّ في كونها ضيقةً إشارةً إلى أنَّ الضَّرورات ؛ إن اقتصر الإنسان عليها في حياته ، لا ينفق إلا على طعامه ، وشرابه ، وسكنه ، وملبسه ، وقضاء ضروراته ، لا يعين محتاجاً ، ولا يصل رحماً ، ولا يعمل خيراً ، ولا يُنفق لنصرة دِيْنٍ ، ولا لنشر فضيلةٍ. . . إن اقتصر في الإنفاق على ما ذكرنا ؛ ضاق صدرُه وكان في غمٍّ دائمٍ ، وهمٍّ مقيمٍ ، وأحسَّ بكراهية الآخرين له ، فبادلهم كرهاً بكرهٍ ، وأضمر لهم حقداً ، وكيداً ، وانعزل عن النَّاس.

إنَّ اقتصاره على هذه الضَّرورات يهبط به إلى مستوىٰ الحيوان الأعجم ؛

---

(١) أدب الدُّنيا والدِّين ١٦٩ .

(٢) أدب الدُّنيا والدِّين ١٧٠ .

الَّذي لا همَّ له إلا قضاء ضروراته ، فهو ـ أي : الحيوان ـ لا يفكِّر في مثلٍ أعلىٰ ولا مكرمةٍ من المكارم ، ولا يحيا ليقيم مجتمعاً فاضلاً يقوم على توحيد الله ، وعبادته ، وتطبيق شرعه .

ومثله في معاناة الضِّيق المعنويِّ مثلُ لابس تلك الجُبَّة الحديدية الضَّيِّقة في معاناته الضِّيق المادِّيِّ .

وجانبٌ آخر من الصُّورة يدلُّ على أمرٍ يقوم في حياة النَّاس :

هذه الجبَّة القصيرة الضَّيِّقة من حديدٍ ، والحديد صُلْبٌ قاسٍ ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الحرص ، وحُبَّ التَّملُّك ، والاستمساك بالمال طبيعةٌ قاسيةٌ قسوة الحديد ، صُلْبةٌ صلابة الحديد ، لا تلين مهما كانت الدَّواعي إلا نادراً ، فإذا غالبتها رغبة الخير ، وعاطفة الرَّحمة ؛ وجدت قسوةً ، وصلابةً ، لا تتجاوب معها . . . فتتجمَّد رغبةُ الخير ، وتتصلَّب عاطفة الرَّحمة ، عند الَّذين يخضعون لغريزة الحرص .

وهذا ما نجده في كثيرٍ من النَّاس الَّذين لا يلتزمون بمقتضيات الإيمان ، ولا بشرائع الإسلام ، إنَّ إنفاق المرء ممَّا رزقه الله صفةٌ من أبرز صفات المتَّقين المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢ ـ ٣] .

وقد يمكن أن تدلَّ هذه الجُبَّة الحديدية على طبيعة الخير ، والرَّحمة ، فهي جامدةٌ في نفوس النَّاس ، قاسيةٌ قسوة الحديد .

والسَّخاء يُلينها . . . فإذا تعوَّد المرء الإنفاق ؛ لانت هذه الطَّبيعة ، وزادت في عطائها ، وفي مساعدة الآخرين .

وقد شبَّه القرآن الكريم القلوب الَّتي لا تلين لدعوة الحقِّ ، ولا تستجيب لنداء الرَّحمة بالحجارة . . . بل إنَّها لأشدُّ قسوةً من الحجارة . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٤] .

إنَّ المعطي إذا أعطىٰ يُعاني في أوَّل مرَّةٍ صراعاً مع نفسه ، والشَّيطان ؛ إذ الشيطان يخوِّفه من الفقر ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٧ ـ ٢٦٨].

فإذا تكرَّر منه العطاء ؛ تغلَّب على نفسه ، والشَّيطان ، ولا تلبث أن تألفَ نفسُه الكزَّةُ هذا السُّلوكَ ، فتلين ، وتنبسط يده بالعطاء ويعتاده. أمَّا البخيل ؛ فإنَّه يدعها على جمودها ، وصلابتها. . بل إنَّه ليزيدها جموداً ، وصلابةً ، وهكذا حتَّى يصبح الإمساك عادةً له ، لا يقوىٰ على مخالفتها.

وممَّا يدلُّ عليه الحديث : أنَّ المال ينمو بالصَّدقة ، وهذا أمرٌ دلَّت عليه آيات القرآن الكريم ، وأحاديث النَّبيِّ ﷺ ، وهو أمرٌ مشاهَدٌ ملموسٌ.

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ [سبأ: ٣٩].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما من يومٍ يصبح العبادُ فيه إلاَّ ملكان ينزلان.

فيقول أحدهما: اللَّهُمّ أعط منفقاً خَلَفاً!

ويقول الآخر: اللَّهُمَّ أعط ممسكاً تَلَفاً!». متفق عليه[1].

فالآية الكريمة فيها عهدٌ من الله ، وإخبار بأنَّ الله سبحانه يخلف ما ينفقه العبد ، سواءٌ كان كبيراً ، أو صغيراً ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ ووَعْدُ الله حَقٌّ لا يتخلَّف.

ألا فلتهنأ عينُ الكريم بما سيلقىٰ في دنياه من الذِّكر الحسن على ألسنة النَّاس ، ومن نموِّ ماله ؛ الَّذي تكفَّل الله به ، وتعويضه. وحسبه أنَّ ملكاً يدعو له كلَّ يومٍ بالخَلَفِ ، كما أخبر بذلك الصَّادق المصدوق.

---

(١) انظرهُ في البخاريِّ برقم ١٤٤٢ ، ومسلمٍ برقم ١٠١٠.

وهناك حديثٌ يقوم على صورةٍ رائعةٍ ، يدلُّ على أنَّ الإمساك يضيق الرِّزق ، والإنفاق يوسِّعه .

عن أسماء ـ رضي الله عنها ـ قالت : قال لي رسولُ الله ﷺ : «لا تُوكِي فَيُوكىٰ عليكِ» . متَّفقٌ عليه[1] .

إنَّ المنفق يكسب رضوان الله ، وثقة النَّاس ومحبَّتهم ، وينمو مالُه ، ويكون في الآخرة في الجنَّة ، وذلك هو الفوزُ العظيم .

أمَّا البخيل الممسك ، فإنَّه يبوء بسخط الله ، وبُغْض النَّاس ، ويحاسَبُ على كنزه المال ، ومنعه حقَّ الله فيه ، ويدعو المَلَكُ على ماله بالتَّلف ، كما دلَّ على ذلك الحديث المتَّفق عليه مِنْ أنَّ ملكين ينزلان فيقول أحدهما : اللَّهُمَّ أعط منفقاً خَلَفاً ! ويقول الآخر : اللَّهُمَّ أعط ممسكاً تَلَفاً ! ويلقىٰ في الآخرة جزاء عمله .

ولمَّا كانت الأنفسُ مجبولةً على حبِّ المال ، والشُّحِّ ؛ فإنَّ الإسلام دعا إلى أن يتعوَّد المرء البذل مهما كان وضعه الماديُّ ، فإذا لم يكن يملك إلا تمرةً فليتصدَّق بنصفها . عن عديِّ بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال : «اتَّقوا النار ولو بشقِّ تمرةٍ» ، متَّفقٌ عليه[2] .

وممَّا جاء في عِظَم ثواب الصَّدقة القليلة ، حديث الفَلُوِّ وهو قوله ﷺ : «مَنْ تَصدَّق بعدل تمرةٍ من كسبٍ طيِّبٍ ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإنَّ الله يقبلها بيمينه ، ثم يربِّيها لصاحبها كما يربِّي أحدكم فَلُوَّهُ حتَّى تكون مثل الجَبَلِ»[3] .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «يا نساء المسلمات لا تَحْقِرَنَّ جارةٌ لجارتها ولو فِرْسِنَ شاةٍ» . متَّفقٌ عليه[4] .

---

(١) انظرهُ في البخاريِّ برقم ١٤٣٣ و١٤٣٤ ومسلمٍ برقم ١٠٢٩ .

(٢) انظر البخاريَّ برقم ١٤١٧ ، ورواه مسلمٌ برقم ١٠١٦ .

(٣) البخاريُّ ٢/ ٩٣ برقم ١٤١٠ ، ومسلمٌ برقم ١٠١٤ ، والتِّرمذيُّ ٢/ ٢٣ برقم ٦٦٢ ، وابن ماجه ٥٩٠ .

(٤) انظر البخاريَّ برقم ٢٥٦٦ ، ورواه مسلمٌ برقم ١٠٣٠ .

قال النَّوويُّ: [قال الجوهري: الفِرسِنُ من البعير كالحافر من الدَّابة. قال: وربما استعير في الشَّاة][1] وجاء في شرح الحديث: [لا تمتنع جارةٌ من الصَّدقة والهدية لاستقلالها، واحتقارها الموجود عندها، بل تجود بما تيسَّر؛ وإن كان قليلاً كفِرسن الشَّاة، فهو خيرٌ من العدم، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾][2].

إنَّ الذي يتصدَّق بالقليل إن كان معسراً؛ يتصدَّق بالكثير إذا ما أيسر. وهذا أمرٌ مشاهدٌ. والجود بالقليل ربما يقع موقع الحاجة من المسكين.

إنَّ نصف تمرة.. ربما تنقذ إنساناً من الموت جوعاً... وإن فِرْسِنَ شاةٍ ربما يكون مطلب قومٍ جياعٍ يرونه شيئاً نفيساً.

وقد حدث: أنَّ قوماً يبدو عليهم الفقر، وظهرت عليهم علامات الجوع، ومرُّوا بالقرب من منزل إنسانٍ كريمٍ فقيرٍ، فهزَّه منظرُهم، وتأثَّر لمرآهم، فدعاهم.. ولم يكن عنده إلا الرزُّ وكسراتٌ من الخبز، وقليلٌ من السَّمن.. فأجابوا دعوته.. ولما دخل على أهله؛ قالت له زوجه: كيف تدعوهم، ولا لحم عندنا، ولا طبيخ، فقد يوسعوننا ذمَّاً إذا عادوا إلى أهليهم. فقال لها: إنَّنا نقدِّم لهم ما عندنا ابتغاء وجه الله.. ولا نريد منهم جزاءً، ولا شكوراً.. ولكنَّ القوم كانوا في حالةٍ من الجوع تفوق الوصف، ورأوا ما قُدِّم إليهم شيئاً نفيساً.. فأكلوا، وسُرُّوا.. وانطلقوا يلهجون بالثَّناء، ويخصُّونه بالدُّعاء.

أخرج النَّسائيُّ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال:

ـ سَبَقَ درهم مِئَةَ ألفِ دِرْهمٍ.

ـ قالوا: وكيف؟

ـ قال: كان لرجل درهمان تصدَّق بأحدهما، وانطلق رجلٌ إلى عُرْضِ

---

(١) رياض الصَّالحين باب بيان كثرة طرق الخير.

(٢) ابن علاَّن ١/ ٣٤٥ نقلاً عن حاشية في رياض الصَّالحين ط الأرناؤوط.

ماله ، فأخذ منه مئة ألفٍ ، فتصدَّق بها[1] .

وقوله: «إلى عُرْضِ ماله» أي: إلى جانبه ، كنايةً عن أنَّ المبلغ المأخوذ ـ وهو مئةُ ألفِ درهمٍ ـ شيءٌ يسير بالنِّسبة إلى ماله الكثير ، ولقد كان الصَّحابة يتصدَّقون من كسبهم القليل امتثالاً لأمر الرَّسول ﷺ ؛ الَّذي كان يريد أن يُرَوِّضهم ، ويربِّيهم على خُلُق الإنفاق .

عن أبي مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسولُ الله ﷺ يأمرنا بالصَّدقة ، فما يجد أحدنا شيئاً يتصدَّق به ، حتى ينطلق إلى السُّوق ، فيحمل على ظهره ، فيجيئ بالمُدِّ ، فيعطيَه رسولَ الله ﷺ. إنِّي لأعرف اليوم رجلاً له مئةُ ألفٍ ، ما كان له يومئذٍ درهم[2] . نعم يذهب الواحد منهم إلى السُّوق يشتغل حمَّالاً ، ويتصدَّق مِنْ كسبه .

ولا يُعاب مَنْ تصدَّق بالقليل . عن أبي مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: لمَّا أمرنا رسولُ الله ﷺ بالصَّدقة ، فتصدَّق أبو عقيل بنصف صاعٍ ، وجاء إنسانٌ بشيءٍ أكثر منه . فقال المنافقون: إنَّ الله عزّ وجلَّ لغنيٌّ عن صدقة هذا . وما فعل هذا الآخر إلا رياءً ، فنزلت: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ [التوبة: ٧٩][3] .

إنَّ عدد الَّذين يستطيعون أن يتصدَّقوا بالقليل عددٌ كبيرٌ ، [وربَّما اجتمع لدى الفقير والمحتاج من الصَّدقات القليلة ؛ الَّتي تُقَدَّم إليه ما يغني حاجته ، ويسدُّ جَوْعته ، ويحلُّ أزمَته ، والقطرات المتعدِّدة تملأ الإناء الواسع][4] .

إنَّ المجتمع المسلم مجتمع السَّخاء ، والجُود ، والبذل ، والعطاء ، لا فرق بين الغنيِّ والفقير إلا في الكَمِّيَّة ، ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ

---

(١) النَّسائيُّ ٥/ ٥٩ وصحيح النَّسائيِّ للألبانيِّ ٢/ برقم ٢٣٦٧ .

(٢) النَّسائيُّ ٥/ ٥٩ ، وصحيح النَّسائيِّ للألباني ٢/ برقم ٢٣٦٩ .

(٣) رواه البخاريُّ برقم ٤٦٦٨ ، وانظر الفتح ٨/ ٣٣٠ ، ورواه النَّسائيُّ ٥/ ٥٩ ـ ٦٠ ، وصحيح النَّسائيِّ للألبانيِّ ٢/ برقم ٢٣٧٠ .

(٤) التَّصوير الفنِّيُّ في الحديث ، الطَّبعة الأولىٰ ٣٢٩ .

رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧].

نعم هذه سمة المجتمع المسلم... الإنفاق... سواءٌ كان المكلف ذا سعةٍ أم كان مِمَّن قُدِرَ عليه رزقُه... ولا يكلِّف الله نفساً إلا وُسْعَها.

إنَّ هذا يجعل من أفراد المجتمع أفراداً مُتعاونين كراماً مُنفقين.

وقد رغَّب الشَّرع المُطهَّر في أن يكون الإنفاق خالصاً من الرِّياء بعيداً عن المَنِّ، والأذى... وآيات سورة البقرة الطَّويلة تقرِّر هذا بأسلوب معجز: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٢ ـ ٢٦٤].

إنَّ هذا الإنفاق كرمٌ سامٍ، بعيدٌ عن الأذىٰ، والرِّياء، لا ينتظر صاحبُه من الخَلْق جزاءً، ولا شُكوراً... وهذا لا يمكن أن يُتصوَّر إلا في حَمَلة هذا الدِّين.

يَعْرِضُ الحديثُ الشَّريف الجميل صورتين متقابلتين للبخيل، والمُنفق، يَعْرِضُهما على وجهٍ متَّصلٍ بالحياة الاجتماعيَّة؛ التي لا تستغني عن الرَّحمة والتَّعاون، وتبادل الثِّقة، والتَّواصل بين النَّاس، ذلك؛ لأنَّ الإنفاق متَّصلٌ بهذه الأمور، والبُخل على النَّقيض من ذلك يَفيض بالقسوة، والتَّقاطع، وبأزمة الثِّقة.

إنَّ المنفق إنسانٌ تملأ الرَّحمة قلبه، وتحرِّكه ليكون اليد الحانية، الَّتي تواسي المُصابين، وتعين البؤساء، وبتوفر عددٍ كبير من هؤلاء المُنفقين تزول المآسي، وتطمئنُّ القلوب، وتسُودُ الثِّقة بين النَّاس، ويكون الخير العميم. والبخيل على النَّقيض مِنْ ذلك.

وفي صورة البخيل الَّتي يَعْرِضُها الحديث قضيَّةٌ من أهمِّ القضايا الَّتي يعاني منها النَّاس... وهذه القضيَّة هي: انهزام الإرادة الخيِّرة أمام الغرائز، والشَّهوات.

والإرادة الخيِّرة الفاضلة يُمليها العقلُ، والشَّرع، ورعاية مصلحة الفرد والجماعة، وعاقبة انهزام الإرادة الخيِّرة أمام الغرائز شقاءٌ، وعناء، وظلمٌ، وعدوانٌ، وبؤسٌ، وقلقٌ، ومساوئُ لا تُحصىٰ.

نلمسُ ذلك في الحديث من محاولة البخيل الإنفاقَ، وإخفاقه في هذه المحاولة، ولقد ضاقت حلقات الجبَّة عليه نتيجةً لذلك، فعمد إلى توسيع الجبَّة الحديدية القاسية، وأخفق مرَّةً بعد مرَّةٍ؛ ففي روايةٍ لأحمد في المسند[1]: «وأمَّا البخيل فلا تزداد عليه إلا استحكاماً»، وفي روايةٍ أخرىٰ له[2]: «فيجهد أنْ يوسِّعها فلا تَتَّسِع».

ونرىٰ في الحديث: أنَّ البخيل، والمنفق كليهما يشتركان في إرادة الإنفاق: فأمَّا المُتصدِّق المنفق؛ فيريد أن يتصدَّق وسرعان ما تنتصر إرادتُه على غريزة الحرص، وعلى النَّفس الأمَّارة بالسُّوء، وينفق.

وأمَّا البخيل؛ فيريد ـ أيضاً ـ ذلك؛ لأنه إنسانٌ تهبُّ على قلبه نسماتُ الرَّحمة، ويرىٰ ما حصل للمُنفق من الاحترام، والاهتمام من قبل النَّاس، وما حصل له من النُّموِّ في المال، فيريد أن يتصدَّق، ولكن إرادته تنهزم أمام غريزة الحرص، والنَّفس؛ الَّتي أُحضِرت الشُّحَّ. فتلزم كلُّ حلقة في الجُبَّة موضعها، وتتقلَّص، وتضيق عليه، كما جاء في رواية لمسلمٍ: «إذا همَّ المُتصدِّق بصدقةٍ اتَّسعت عليه، حتى تُعَفِّيَ أثَره.

وإذا هَمَّ البخيل بصدقةٍ تقلَّصت عليه، وانضمَّت يداه إلى تراقيه، وانقبضت كلُّ حلقة إلى صاحبتها».

---

(١) المسند ٢/ ٢٥٦.

(٢) المسند ٢/ ٣٨٩.

ويمثِّل ذلك رسولُ الله ﷺ بحركةٍ توضِّح للسَّامعين ، والمخاطَبين المعنىٰ ، فقد وضع ﷺ أُصْبَعَهُ في جيبه ، وشرع يوسع ذاك الجيب ، ولا يتوسَّع .

وهذا أسلوبٌ من أساليب النَّبيِّ ﷺ التعبيريّة ، يسلك فيه مسلك الإشارة والحركة في تصوير المعنى الَّذي يريد تقريره .

لقد عرض الحديثُ إرادةَ كلٍّ من البخيل ، والمتصدِّق ، انتصرت إرادةٌ ، وانهزمت أخرىٰ ، وكان انتصار إرادة المتصدِّق خيراً عليه ، كما كان انهزام إرادة البخيل ضيقاً عليه ، وشرّاً . ومن هنا عمَد الإسلام إلى تربية الإرادة الخيِّرة ، وتقويتها في أتباعه ؛ حتَّى يكون لها النَّصر في كلِّ مرحلةٍ من مراحل الحياة ، وفي كلِّ صراعٍ مع الغريزة والشَّهوة .

إنَّ تكاليف الشَّرع كلَّها تعتمد على الإرادة القوية بدءاً من إقامة الصَّلاة إلى الصِّيام ، وانتهاءً بِبَذْلِ المال ، والرُّوح في سبيل الله ؛ إن دعا داعي الجهاد .

ولذلك كان حمَلةُ الرِّسالات ، وأصحابُ المثل رجالاً أشدَّاء ، يملكون الإرادة القويّة الَّتي تُنَحِّي جانباً كلَّ العوائق من طريقها من غريزةٍ ، وشهوةٍ ، ومصلحةٍ ، وخوفٍ ، وهزيمةٍ :

إِذَا هَمَّ أَلْقَىٰ بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ العَوَاقِبِ جَانِبَا

ومن الأمور الَّتي وقف العلماء عندها في الحديث : أنَّ رسول الله ﷺ قابل بين (البخيل) و(المُنفق) ، مع أنَّ الَّذي يتبادر للذِّهنِ : أنَّ الكلمة الَّتي تقابل (البخيل) هي كلمة (الكريم) . وبحثوا عن الحكمة في اختيار (المُنفق) محلَّ (الكريم) فقالوا : أراد بذلك ﷺ أن يقرِّر أنَّ السَّخاء المحمود هو ما أمر به الشَّرع ، وندب إليه ، لا ما يفعله كثيرٌ من المسرفين مدَّعين : أنَّ فعلهم كرمٌ .

ومن ذلك ما تتناقله كتب الأدب من نحر بعضهم الإبل ، والشَّاء لإطعام الطَّير ، أو للتَّفاخر .

فقد زعموا : أنَّ جدَّ منصور بن الزبرقان النّمريِّ أطعم ناساً نزلوا به ، ونحر لهم ، ثمّ رفع رأسه فإذا هو برخم يَحُمْنَ حول أضيافه ، فأمر أن يُذبح لهنَّ كبشٌ

ويُرمى لهنَّ ، فسُمِّي (مطعم الكبش الرَّخم)[1] وهذا فعلٌ محرَّمٌ نهى عنه رسول الله ﷺ ، فقد أخرج أحمد ، وأبو داود عن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«لا عَقْرَ فِي الإسلام»[2].

وأخرج أبو داود عن ابن عباسٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: إنَّ النَّبيَّ ﷺ نهى عن طعام المُتَبارِيَيْنِ أن يؤكل[3].

وأخرج أيضاً عن ابن عباسٍ: أنه قال:

نهى النَّبيُّ ﷺ عن معاقرة الأعراب[4].

قال الإمام الخطَّابي في «معالم السُّنن» تعليقاً على حديث أبي داود: عن ابن عباسٍ، قال: نهى رسول الله عن مُعاقرة الأعراب؛ قال: [هو أن يتبارى الرَّجلان: كلُّ واحدٍ يجاود صاحبه، فيعقِر هذا عدداً من إبله وهذا عدداً من إبله، فأيُّهما كان أكثرَ عقراً؛ غلب صاحبه، ونَفَره...] ثمَّ قال: [وفي معناه ما جرت به عادة النَّاس من ذبح الحيوان بحضرة الملوك، والرُّؤساء عند قدومهم البلدان، وأوان حدوث نعمةٍ تتجدَّد لهم في نحو ذلك من الأمور][5].

وقال الخطَّابيُّ: [كان أهل الجاهليَّة يعقرون على قبر الرَّجل الجواد. يقولون: نجازيه على فعله؛ ليأكلها السِّباع، والطير، فيكون مُطعماً في مماته، كما في حياته][6].

---

(١) مختار الأغاني لابن منظور ١٠/ ١٤٠، ونهاية الأرب للنُّويريِّ ٣/ ٨٥ إلا أنَّ النُّويريَّ ذكر أنَّ منصوراً هو مطعم الكبش الرَّخم.

(٢) المسند ٢/ ١٩٧، وأبو داود برقم ٣٢٢٢.

(٣) أبو داود برقم ٣٧٥٤، وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ١٤ ـ ١٥ طبعة دار الشَّعب.

(٤) أبو داود برقم ٢٨٢٠.

(٥) «معالم السُنن» بتحقيق محمَّد حامد الفقي ٤/ ١١٣ ـ ١١٤ وانظر «شرح السُّنَّة» للبغويِّ ١١/ ٢٢٦ أقول: وانظر «المجموع» للإمام النَّوويِّ ٨/ ٣٠٩ ط المطيعي.

(٦) «شرح السُّنَّة» للبغويِّ ١١/ ٢٢٧.

ومن المُعاقرات المشهورة معاقرة سحيم بن وثيل الرِّياحي ، وغالب بن صعصعة والد الفرزدق أُورِدُها كما ذكرها أحمد محمَّد شاكر ، وعبد السَّلام هارون في ترجمتهما لسحيم في «الأصمعيات» قالا :

[وهو صاحب القصَّة المشهورة في المُعاقرة ، وذلك: أنَّ أهل الكوفة أصابتهم مجاعةٌ ، فخرج أكثر النَّاس إلى البوادي. فعقر غالبُ بن صعصعة والدُ الفرزدق لأهله ناقةً صنع منها طعاماً ، وأهدى منه إلى ناسٍ من تميم ، فأهدىٰ إلى سحيم جفنةً ، فكفأها سحيم ، وضرب الَّذي أتىٰ بها ، ونحر لأهله ناقةً.

ثم تفاخرا في النَّحر ، حتَّى نحر غالبٌ مئة ناقة ، ولم تكن إبل سحيم حاضرةً ، فلمَّا جاءت نحر سحيم ثلاثمئة ناقةٍ.

وكان ذلك في خلافة سيِّدنا عليِّ بن أبي طالبٍ ـ رضي الله عنه ـ فمنع النَّاس من أكلها ، وقال: إنَّها ممَّا أُهِلَّ لغير الله به ، فجُمعت لحومها على كناسة الكوفة ، فأكلتها الكلاب ، والعُقبان ، والرُّخم[1].

إنَّ ما يفعله بعض النَّاس من التَّبذير ، والإسراف سفهٌ ممقوتٌ ؛ لأنَّ المال محترمٌ في نظر الشَّرع ، وإتلافُه دون أن يؤدِّيَ مهمَّةً ، أو وظيفةً مشروعةً أمرٌ محظورٌ ، والكلمات لها ظلالٌ ، وإشعاعاتٌ معيَّنةٌ ، فالإنفاق ممَّا رزق الله : كلمةٌ قرآنيَّةٌ كثيرة الورود في كتاب الله ، عندما يكون الحديث عن المؤمنين المتَّقين.

وبدا البخيل في هذه الصُّورة النَّبويَّة مسكيناً يعاني من الضِّيق ، وضعف

---

(١) قال المحقِّقان للأصمعيات: القصَّة مفصَّلةٌ في «النقائض» ٤١٤ ـ ٤١٨ و٦٢٥ و٦٢٦ و١٠٧٠ ـ ١٠٧١ ، و«الأمالي» ٣/ ٥٢ ـ ٥٤ ، و«الخزانة» ١/ ٤٦١ ـ ٤٦٣ ، و«معجم البلدان» ٥/ ٣٩٥ ، وأشار إليها الحافظ ابن حجر في «الإصابة» ٣/ ١٦٤ ، و«اللسان» ٦/ ٢٧٠.
قلت: وقد أورد القصَّة أيضاً ابن كثيرٍ في تفسيره (٣/ ١٤ ـ ١٥) عند تفسير قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ نقلاً عن ابن أبي حاتم على نحو آخر ، وفيها:
[فخرج عليٌّ على بغلةِ رسول الله ﷺ البيضاء ، وهو ينادي: يا أيُّها النَّاس لا تأكلوا لحومها ؛ فإنَّما أهلَّ بها لغير الله] ثمَّ قال ابن كثير: [هذا أثرٌ غريبٌ ، ويشهد له بالصحَّة ما رواه أبو داود. . .] ثمَّ أورد الأحاديث ؛ الَّتي ذكرناها.

الإرادة ، والفضيحة ، وكراهية النَّاس له الشَّيءَ الكثير .

وإنَّه لمسكينٌ حقَّاً ، يجمع مالاً يتعب بجمعه ، ولا يستمتع به ، وعليه مسؤوليَّتُه ، وقد يتعرَّض للمخاطر من أجل المحافظة عليه ، وهو ضيِّق الصَّدر ، مغلولُ اليدين .

وأمَّا في الآخرة ؛ فإنَّه سيحاسب عليه مِنْ أين اكتسبه ، وكيف منع الفقراء حقَّهم فيه؟ ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٩] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾ [آل عمران: ١٨٠] ، فلا ينفكُّ البخيل عن ضيقٍ ، وهمٍّ ، وحرمانٍ ، وغمٍّ ، وهو حارس نعمته ، وخازن ورثته ، ومسؤوليَّته كبيرةٌ . . . وما أروع هذه الصُّورة التي ظهر فيها البخيلُ ، وقسيمُه المنفق! فصلوات الله ، وسلامُه على مَنْ أوتي البيان ، وجوامع الكَلِم .

* * *